المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية – جامعة سيدي بلعباس
ISNN : 2170-0060 EISSN : 2602-523X
المجلد 18 -- العدد 01 -- جوان 2026 ص 630 - 646

طقوس الدفن في شمال إفريقيا القديمة: دلالات رمزية واجتماعية

Funerary Beliefs and Rituals among the Ancient Amazigh: A Study of Religious Symbolism and Social Dimensions

دليلة نصلي بكير - أستاذة محاضرة -ب- naslibakir.dalila@cuniv-naama.dz	الفلسفة	المركز الجامعي أحمد صالحي/ النعامة

DOI :

الإرسال: 2025/10/11 **القبول**: 2026/05/06 **النشر**: 2026/06/20

ملخص:

تُعدّ طقوس الدفن من أبرز الممارسات التي تكشف عن البنية الرمزية والاجتماعية للمجتمعات القديمة، إذ تمثل مرآةً لتمثلات الإنسان للموت والحياة والخلود. وفي شمال إفريقيا القديمة، تميّزت هذه الطقوس بتنوّعها وغناها الرمزي الناتج عن التفاعل بين الثقافات الأمازيغية والفينيقية والرومانية، ما يجعل دراستها مدخلًا أساسيا لفهم البنية الثقافية والدينية للمنطقة.

يسعى هذا البحث إلى تحليل طقوس الدفن في شمال إفريقيا القديمة من منظورٍ تاريخي وأنثروبولوجي، من خلال تتبّع أشكال المقابر، والقرابين، والرموز، والممارسات الجنائزية المختلفة، بغرض الكشف عن الدلالات الرمزية والاجتماعية التي تختزنها. وتنطلق الدراسة من فرضية أنّ طقوس الدفن لم تكن مجرد ممارسة دينية مادية، بل شكلت خطابًا رمزيًا يعكس التصورات الجماعية حول المصير الإنساني ومكانة الفرد في المجتمع.

وقد أُعتمد المنهج التاريخي التحليلي إلى جانب المقاربة الأنثروبولوجية المقارنة، لإبراز مظاهر التثاقف الحضاري في الطقس الجنائزي بشمال إفريقيا، وإعادة قراءة موروثها الرمزي خارج السرديات الكولونيالية التقليدية.

وتخلص الدراسة إلى أنّ طقوس الدفن تمثل شهادة حية على وحدة التجربة الإنسانية في مواجهة الموت، وعلى قدرة الثقافة الإفريقية القديمة على التفاعل والإبداع ضمن فضائها الحضاري المتوسطي.

كلمات مفتاحية: طقوس الدفن، شمال إفريقيا القديمة، الرموز الجنائزية، التثاقف الحضاري، الأنثروبولوجيا التاريخية.

Abstract:

Funerary rituals are among the most significant practices revealing the symbolic and social structures of ancient societies, reflecting human conceptions of death, life,

and immortality. In ancient North Africa, these rituals were marked by great diversity and symbolic richness, resulting from the interaction between Berber, Phoenician, and Roman cultures. This study aims to analyze funerary practices in ancient North Africa from both historical and anthropological perspectives, by examining tomb types, offerings, symbols, and burial customs, in order to uncover their deeper social and symbolic meanings.

The research is based on the hypothesis that funerary rituals were not merely material or religious acts, but rather symbolic discourses expressing collective perceptions of destiny and the individual's status within the community. Using a historical-analytical method combined with a comparative anthropological approach, this study seeks to highlight the manifestations of cultural interaction in funerary practices and to reinterpret North Africa's ancient heritage beyond colonial narratives.

The study concludes that funerary rituals stand as a living testimony to the unity of the human experience in confronting death and to the creative capacity of ancient African culture within its Mediterranean context.

Keywords : Funerary rituals ; Ancient North Africa ; Symbolic meanings ; Cultural interaction ; Historical anthropology.

مقدمة:

تُعدّ الطقوس الجنائزية من أقدم الممارسات التي رافقت الإنسان منذ نشوء الحضارات، إذ تشكّلُ في جوهرها تعبيرًا عن الوعي الإنساني بالموت وعن سعيه الدائم لفهمه وإدماجه في نظام رمزي وثقافي يمنح للحياة معناها وللفناء استمراره في شكلٍ آخر. ولئن تباينت مظاهر الدفن من مجتمعٍ إلى آخر، فإنها في كلّ الأحوال تُعبّر عن نظامٍ من القيم والمعتقدات يحدد علاقة الإنسان بالعالم وبالمقدّس وبالجماعة التي ينتمي إليها.

وفي شمال إفريقيا القديمة، التي مثّلت ملتقى للحضارات المتوسطية الكبرى — الفينيقية والقرطاجية والنوميدية والرومانية — برزت طقوس الدفن كعنصرٍ مركزي في الحياة الدينية والاجتماعية، وكشاهدٍ حيٍّ على التفاعل الحضاري بين الثقافات المحلية والتأثيرات الوافدة .فقد كشفت الدراسات الأثرية والنقوش الجنائزية عن ثراءٍ كبيرٍ في أشكال المقابر، وتنوّعٍ في الرموز والقرابين والممارسات المرافقة للدفن، بما يعكس رؤيةً مميزةً للموت والحياة والخلود في الوعي الجماعي لسكان المنطقة.

وتكمن أهمية هذا البحث في سعيه إلى فهم الدلالات الرمزية والاجتماعية لطقوس الدفن في شمال إفريقيا القديمة، انطلاقًا من المقاربة التاريخية والأنثروبولوجية معًا. فهو لا يكتفي بوصف المظاهر المادية للطقوس، بل يحاول قراءة ما تختزنه من رموزٍ ومعانٍ ثقافية

تعبّر عن مكانة الفرد داخل الجماعة، وعن العلاقة الجدلية بين الدين والمجتمع. كما يرمي إلى إبراز خصوصية الهوية الإفريقية القديمة في تفاعلها مع المؤثرات الفينيقية والرومانية دون أن تفقد جذورها المحلية.

ومن هنا تنبثق إشكالية البحث في السؤال الآتي:

كيف تعكس طقوس الدفن في شمال إفريقيا القديمة البنية الرمزية والاجتماعية للمجتمعات التي مارستها؟

وما مدى حضور التفاعل الحضاري في تشكيل هذه الممارسات بين الأمازيغ والفينيقيين والرومان؟

ينطلق هذا البحث من فرضية أساسية مؤدّاها أن طقوس الدفن ليست مجرد ممارسات دينية أو شعائرية، بل خطاب رمزي وثقافي يكشف عن تصورات الإنسان القديم للموت وللعلاقات الاجتماعية في زمنه. وتعتمد الدراسة في مقاربتها على المنهج التاريخي التحليلي لتتبّع تطور هذه الطقوس عبر الحقب المختلفة، والمنهج الأنثروبولوجي المقارن لفهم أبعادها الرمزية والاجتماعية في سياقها الثقافي.

وعليه، فإن هذا البحث يسعى إلى المساهمة في إعادة قراءة تاريخ شمال إفريقيا القديمة من منظورٍ ثقافيٍّ وإنساني، يُبرز ما تختزنه الممارسات الجنائزية من معانٍ حضارية عميقة، ويكشف عن وحدة التجربة الإنسانية في مواجهة الموت، رغم اختلاف الأزمنة والثقافات.

العرض:

الفصل الأول: الإطار التاريخي والثقافي لطقوس الدفن في شمال إفريقيا القديمة

ملامح المشهد الحضاري في شمال إفريقيا القديمة:

شهدت منطقة **شمال إفريقيا** عبر العصور القديمة تفاعلًا حضاريًا بالغ الثراء والتعقيد، إذ شكّل موقعها الجغرافي الاستراتيجي -الممتد بين ضفّتي البحر الأبيض المتوسط شمالًا والصحراء الكبرى جنوبًا -محورًا للتواصل بين العالم المتوسطي والعالم الإفريقي الداخلي، وملتقىً لقوافل التجارة ومسارات الهجرة وموجات الغزو والتبادل الثقافي. مما

جعلها فضاءً لتلاقح الثقافات المحلية والأجنبية. وقد تعاقبت على هذه المنطقة حضارات متعدّدة كالأمازيغية، الفينيقية، القرطاجية، والنوميدية، ثم الرومانية، ولكلٍّ منها أثره في تشكيل الوعي الديني والطقوسي للإنسان الإفريقي القديم (الحميد، 2011، ص33)، فالموقع جعلها على الدوام فضاءً مفتوحًا لتلاقح الحضارات وتفاعل المعتقدات، بحيث لم تكن مجرد منطقة عبور، بل مجالًا لإعادة إنتاج المعاني الدينية والرمزية وفق الخصوصيات المحلية.

وقد تعاقبت على هذه الأرض حضارات متعدّدة ومتداخلة فيما بينها؛ بدءًا من الحضارة الأمازيغية الأصيلة التي تمثل الجذر الثقافي والروحي للمنطقة، مرورًا بالحضور الفينيقي والقرطاجي الذي أدخل أنماطًا جديدة من العبادة والطقوس المرتبطة بالبحر والتجارة والخصب، ثم الحقبة النوميدية التي عكست محاولة مزج بين الموروث الأمازيغي والمكتسبات الفينيقية، وصولًا إلى الفترة الرومانية التي تركت بصمات عميقة في البنية العمرانية والدينية والاجتماعية.

ولم يكن هذا التفاعل الحضاري مجرّد تراكم تاريخي للأحداث أو تبادل مادي للبضائع والأفكار، بل كان مسارًا ديناميًا لتشكّل الوعي الديني والطقوسي للإنسان الإفريقي القديم .فقد أعاد هذا الإنسان صياغة مفاهيم الحياة والموت، والقداسة والدنس، والخلود والبعث، في ضوء تجربته المتعددة الأبعاد مع الطبيعة والآلهة والسلطة. وهكذا تبلورت في شمال إفريقيا منظومة رمزية متشابكة تمزج بين العقيدة والممارسة، وبين المادي والروحي، تعكس نظرة الإنسان إلى ذاته في مواجهة الكون والمصير.

ومن خلال هذا التمازج الطويل الأمد، تكوّن ما يمكن تسميته بـ الهوية الدينية المركّبة لشمال إفريقيا القديمة، التي اتسمت بالتعددية والمرونة، فاحتفظت ببصماتها الأمازيغية الأصيلة رغم الانفتاح على الوافد الخارجي، وابتكرت طقوسًا وعبادات تعكس تفاعل الإنسان مع بيئته، وتُجسّد فهمه الخاص للمقدّس وللحياة ما بعد الموت.

كانت الحياة الدينية في شمال إفريقيا القديمة وثيقة الصلة بالطبيعة ومظاهرها المختلفة، إذ تَمثَّل الإنسان الأمازيغي والعربي القديم الكون ككائن حيٍّ نابض بالقوى الخفية التي تتحكم في مصيره وتوجّه مجرى الأحداث من حوله. وقد شكّل هذا الإيمان أساسًا لفهمه للعالم ولعلاقته بالمقدّس، فكان ينظر إلى الجبال والأنهار والينابيع والسماء

والشمس والقمر بوصفها مظاهر لتجلّي تلك القوى الإلهية التي تستحق الطقوس والتقديس.

ومن هذا المنطلق، ظهرت عبادة الأسلاف باعتبارهم وسطاء بين الأحياء والعالم الآخر، حيث ظلّ الموتى يُستحضرون في الطقوس والدعوات طلبًا للحماية والخصب والبركة. وقد تجلت هذه المعتقدات في الممارسات الجنائزية التي أحيطت بعناية ورمزية دينية عميقة، حيث يُدفن الميت مصحوبًا بقرابين وتمائم وأدوات، تعبيرًا عن الاعتقاد باستمرار الحياة في العالم الآخر (محمد، 2009، ص78). كما حظيت الآلهة المرتبطة بالخصب والماء والشمس بمكانة مركزية في المخيال الديني الإفريقي القديم؛ فالماء كان رمزًا للتطهير والتجدد، والشمس مصدرًا للنور والحياة، بينما ارتبطت الأرض بدورة الإنبات والموت والبعث. ولهذا انتشرت الرموز الزراعية والنقوش الشمسية والتمائم ذات الدلالات الأنثوية، التي تعبّر عن تقديس قوى الخصب واستمرار الحياة.

وتُظهر الشواهد الأثرية المكتشفة في مناطق مثل تيبازة ودقة وقرطاج مدى عمق هذه العلاقة بين الدين والطبيعة، إذ تحتوي على نقوش ونُصب وتماثيل لآلهة مثل *تانيت* و*بعل حمّون*، فضلاً عن رموز فلكية وزخارف نباتية وحيوانية تُجسّد وحدة الكون في المخيال القديم. وقد أظهرت الحفريات الأركيولوجية أنّ هذه الرموز لم تكن مجرد عناصر فنية، بل أنساقًا رمزية تعبّر عن رؤية الإنسان الكونية، التي تقوم على مبدأ التناغم بين الحياة والموت، بين الأرض والسماء، وبين الإنسان والعناصر الكبرى للطبيعة. وقد أفرز هذا التنوّع الحضاري رؤية مميزة للموت، جعلت من الدفن فعلًا مقدّسًا، يُمارس ضمن طقوس دقيقة تعكس فكرة الاستمرار في الحياة الأخرى، وهو ما يظهر في العناية بتشييد القبور وتزيينها ووضع الهدايا الجنائزية بداخلها (يوسف، 2015، ص94)

مفهوم الطقس الجنائزي ووظيفته الاجتماعية

يُعرَّف الطقس الجنائزي في الدراسات الأنثروبولوجية على أنه مجموعة من الممارسات الرمزية والاجتماعية التي ترافق حدث الموت، وتهدف إلى ضمان انتقال المتوفّى من حالة الحياة إلى حالة الموت في انسجام مع النظام الكوني والاجتماعي للجماعة. فهو ليس مجرد فعل مادي لإخفاء الجسد، بل منظومة شعائرية تمثل لحظة حسّاسة من

لحظات التحوّل الوجودي والرمزي في حياة الفرد والمجتمع. وقد عرّفه الأنثروبولوجي **أرنولد فان غينيب** في كتابه *Les Rites de Passage* (1909) بأنه "مرحلة عبور بين حالتين اجتماعيتين، ترافقها طقوس انفصال واندماج"، إذ يرى أن كل طقس من هذا النوع يتضمن ثلاث مراحل :الانفصال عن العالم السابق، والعبور عبر مرحلة وسطى غامضة، ثم الاندماج في الحالة الجديدة .(Gennep, 1909 ,p .147) وفي شمال إفريقيا القديمة، لم تكن الطقوس الجنائزية مجرد استجابة وجدانية لفقدان الحياة، بل كانت ذات بعدين متكاملين يعكسان عمق الرؤية الكونية والروحية للإنسان الامازيغي القديم

فمن الناحية الدينية، مثّلت هذه الطقوس تعبيرًا عن الإيمان بخلود الروح واستمرارها في عالم آخر، حيث تلتقي الأرواح بالآلهة وتحيا حياة أبدية. وكان إعداد الجسد وتزويده بالقرابين والتمائم وتجهيزه داخل القبر يُعَدّ ضمانًا لعبور آمن نحو تلك الحياة الثانية، مما يُظهر اعتقادًا راسخًا بأنّ الموت ليس نهاية الوجود بل تحوّل في صورته. أما من الناحية الاجتماعية، فقد كانت الطقوس الجنائزية وسيلة لإعادة تثبيت الروابط الجماعية والتضامن الاجتماعي، إذ يشترك أفراد الجماعة في أداء الشعائر والتضرع للميت، تأكيدًا على وحدة الذاكرة الجمعية واستمرارية الانتماء. فالموت لا يقطع العلاقة بين الفرد ومجتمعه، بل يعيد دمج الميت في سلسلة الأسلاف التي تمنح الهوية والاستمرارية للجماعة (حسن، 2012، ص52).

ومن هذا المنطلق، كان دفن الميت في شمال إفريقيا القديمة فعلاً رمزيًا مؤسسًا للنظام الاجتماعي، لأنه يضمن بقاء الجماعة ضمن دائرة المقدّس ويحميها من الفوضى والاضطراب. وقد أشارت **ماري دوغلاس** إلى أن تجاهل الطقوس أو خرقها يُعدّ نوعًا من الإخلال بالمقدّس يهدّد التوازن الرمزي للمجتمع ويُعرّضه لغضب الأرواح أو فقدان البركة. (Douglas, 1975, p.89) ولهذا، لم يكن الطقس الجنائزي حدثًا عرضيًا، بل فعلًا اجتماعيًا ذا وظيفة كونية، يُعيد بواسطته الإنسان ترتيب العلاقة بين الحيّ والموتى، وبين العالم المرئي والعالم الخفي، في إطار من التوازن والتقديس والاحترام لقوى الطبيعة والآلهة.

الرموز والدلالات في طقوس الدفن الافريقية القديمة:

تنوّعت الرموز المستخدمة في طقوس الدفن في شمال إفريقيا القديمة بشكلٍ يعكس عمق البنية الرمزية والثقافية للمجتمعات التي سكنت هذه المنطقة. فقد كانت الأواني الفخارية والأسلحة والتماثيل الصغيرة تُوضع إلى جانب الميت لا بوصفها مجرد مقتنيات شخصية، بل باعتبارها وسائط رمزية تضمن استمرارية الحياة في العالم الآخر، وتعبّر عن المكانة الاجتماعية والهوية الثقافية للفرد داخل الجماعة (القادر، 2010، ص133).أما النقوش التي تمثّل الشمس أو قرص الحياة، فقد كانت تحمل دلالات عميقة متصلة بفكرة البعث والتجدّد، إذ عُدّت الشمس رمزًا للدورة الأبدية للحياة، وانبعاثها كل صباح كان يُجسّد انتصار النور على الظلام والموت على الفناء.

ومن جهة أخرى، لم يكن اتجاه القبر نحو الشرق تفصيلًا معمارياً عفويًا، بل هو تموضع رمزي يشير إلى "العودة إلى النور"، أي إلى انبعاث الروح في فجرٍ جديد، كما يعكس أيضًا الاعتقاد بأن الحياة لا تنتهي بالموت، بل تتجدّد في بعدٍ آخر من الوجود. أما المقابر الجماعية، فقد شكّلت تجسيدًا ملموسًا لفكرة التضامن العائلي والاجتماعي، إذ كانت تعبّر عن تماسك البنية القرابية وعن المكانة المرموقة لبعض الأسر التي سعت إلى تخليد اسمها في الذاكرة الجمعية. وتكشف النقوش القرطاجية عن طقوس تكميلية رافقت الدفن، من تقديم قرابين من الحيوانات أو الأطعمة في مناسبات دورية، إلى إقامة احتفالات لتكريم الأرواح واسترضائها أملاً في نيل بركتها وحمايتها للأحياء (الحسيني، 2017، ص101).

إنّ هذه الرموز والطقوس تكشف عن نظرة فلسفية عميقة لدى الإنسان الإفريقي القديم، إذ لم يكن الموت يُفهم بوصفه انقطاعًا عن الوجود، بل تحوّلًا نحو حالة جديدة من الحياة، تقوم على التواصل المستمر بين عالمي الأحياء والأرواح. وقد مثّلت الطقوس الجنائزية الوسيلة الأساسية لحفظ هذا التوازن الكوني وضمان استمرارية النظام الرمزي والاجتماعي معًا .(Eliade, 1957 , p .92)

ومن ثمّ، يتّضح أنّ طقوس الدفن في شمال إفريقيا القديمة كانت تتجاوز بعدها الديني الضيق لتغدو نظامًا رمزيًا متكاملًا يعبّر عن التصوّر الجمعي للعالم، وعن العلاقة الجدلية بين الإنسان والمقدّس والمجتمع. فكلّ تفصيل — من موضع القبر واتجاهه إلى النقوش والزخارف المرسومة على جدرانه — كان يحمل معنى متجذّرًا في الفكر الديني والأسطوري لتلك الحضارات، ويسهم في إدامة التواصل بين الحاضر والماضي، بين الأحياء والأسلاف، في رؤية كونية ترى في الموت استمرارًا للحياة لا نهايتها.

الفصل الثاني: الممارسات والطقوس الجنائزية في الحضارات الأمازيغية والقرطاجية والرومانية بشمال افريقيا:

الطقوس الجنائزية في الحضارة الأمازيغية القديمة

تُعدّ الحضارة الأمازيغية من أعرق الحضارات التي استقرت في شمال إفريقيا، وقد شكّلت عبر آلاف السنين ركيزة أساسية للهوية الثقافية والروحية للمنطقة. وتميزت هذه الحضارة بتراث مادي وروحي ثري، يتجلّى بوضوح في طقوس الدفن والممارسات الجنائزية، التي عكست تصوّر الأمازيغ للوجود والعدم، وأبرزت مكانة الموت كجزء لا يتجزأ من دورة الحياة الطبيعية والروحية. فالطقوس الجنائزية عند الأمازيغ لم تكن مجرد إجراءات دينية أو اجتماعية، بل كانت منظومة رمزية متكاملة، تختزل رؤيتهم للعالم والإنسان والكون.

أ. المقابر وأنواعها:

تنوّعت المقابر الأمازيغية من حيث الشكل والبناء تبعًا لاختلاف البيئات الجغرافية والمستويات الاجتماعية، فظهرت المدافن الصخرية المنحوتة في الجبال كما في مناطق الأوراس وجرجرة، والتي تعكس قدرة الإنسان الأمازيغي على استثمار الطبيعة في خدمة البعد الرمزي للدفن. كما انتشرت المدافن الركامية أو ما يُعرف بـ"الدولمنات(Dolmens) "، وهي منشآت جنائزية تتكوّن من صفائح حجرية ضخمة مرتّبة على شكل غرفة مستطيلة مغطاة بحجر أفقي، ما يبرز حسّ التنظيم والرمزية الهندسية في الفكر الجنائزي الأمازيغي (Février, 1966,p.78)

وإلى جانب هذه الأشكال البسيطة، شُيّدت أضرحة ملكية ضخمة مثل ضريح **إمدغاسن (Imedghassen)** في منطقة باتنة، وضريح **مازونة وسيفا**، وهي مبانٍ دائرية الشكل مزخرفة بنقوش وزخارف دقيقة، تعبّر عن الرفعة السياسية والمكانة الدينية للمدفونين فيها، فضلاً عن تمثيلها البارز لفن العمارة الأمازيغية القديمة (قاسي، 2013، ص41)

أ- **الطقوس والمعتقدات:**

كانت طقوس الدفن عند الأمازيغ تستند إلى منظومة فكرية تؤمن بأن الموت ليس نهاية مطلقة، بل عبور نحو عالم موازٍ تستمر فيه الحياة في شكل مغاير. ومن هذا المنطلق، كان الميت يُدفن ومعه أدواته الشخصية وأوانٍ فخارية وأسلحة وطعام، في إشارة إلى أنّه يستعد لرحلة جديدة في العالم الآخر، حيث تستمر الروح في ممارسة نوع من الوجود الرمزي أو الروحي (Chaker, Berbères: Identité et culture, 1998,p.212)

كما تميّزت الممارسات الأمازيغية بإقامة مراسيم جماعية بعد الدفن، تتضمّن الولائم والرقصات الطقوسية والأناشيد الجنائزية، وهي مظاهر تُعبّر عن التلاقي بين الحزن على الفقد والاحتفاء بالحياة ذاتها. فالموت عند الأمازيغ كان يُنظر إليه كتحوّل في الوجود، لا كفناء، وهو ما جعل الطقوس تمتزج فيها الجوانب الدينية بالاجتماعية والجمالية (القلالي، 2016، ص88).

ب-الرموز والدلالات

تكشف النقوش والتمائم الأمازيغية عن رموز الشمس والقمر واليد المفتوحة (الخميسة) كعناصر دالة على الحماية من الأرواح الشريرة .كما أنّ اتجاه القبر نحو الشرق أو الجنوب الشرقي يعكس إيمان الأمازيغ بالشمس كمبدأ للحياة والبعث (Khader, 2005 ,p.67)

الطقوس الجنائزية في الحضارة القرطاجية

مع حلول الفينيقيين بشمال إفريقيا وتأسيس مدينة قرطاج **(814 ق.م)**، دخلت المنطقة مرحلة جديدة من التفاعل الحضاري والديني، إذ حمل الفينيقيون معهم منظومة من المعتقدات والطقوس ذات الجذور المشرقية العميقة، خاصة تلك القادمة من مدينتَي **صوروصيدا** .وقد اندمجت هذه العقائد تدريجيًا مع الموروثات المحلية، لتشكّل مزيجًا دينيًا متفرّدًا أفرز ممارسات جنائزية تعبّر عن تلاقح الرموز بين الشرق والغرب، بين البعد الكنعاني الروحي والخيال الإفريقي الطقوسي.

أ- مفهوم الموت والآلهة

كان القرطاجيون ينظرون إلى الموت بوصفه عبورًا لا نهايةً، فهو انتقال إلى عالم علوي أسمى تتواصل فيه الأرواح مع القوى الإلهية. وقد ارتبط هذا التصوّر بفكرة الديمومة الكونية التي تشرف عليها ثنائية الإلهين **بعل حمّون وتانيت**؛ فالأول رمز للخصب والنماء والنار المقدسة، والثانية تجسّد الأم الكبرى التي تمنح الحياة وتحميها من الفناء. هذان الإلهان شكّلا معًا محورًا لطقوس الموت والبعث في قرطاج، حيث كان يُعتقد أن بعل حمّون يتولّى استقبال الأرواح، فيما تُعيد تانيت دورة الحياة من جديد، في تناغم رمزي بين الفناء والتجدّد (Lancel, Carthage: Histoire et archéologie, 1995,p .134)

إنّ هذه الرؤية الميتافيزيقية للموت تُظهر أن القرطاجيين لم يفصلوا بين المقدّس والإنساني، بل جعلوا من الطقس الجنائزي لحظة استعادة للاتصال بالآلهة، وتأكيدًا على استمرارية الروح في نسيج الوجود الكوني.

ب- أنواع المدافن:

تنوّعت المقابر القرطاجية بحسب الطبقات الاجتماعية والمعتقدات السائدة، فظهرت المدافن الأرضية العميقة المزودة بتوابيت حجرية أو فخارية محكمة الإغلاق، إلى جانب المقابر العائلية المزخرفة بالرموز الدينية والنقوش الكتابية التي تسجّل أسماء الآلهة أو المكرّسين لها. ومن أبرز المعالم الجنائزية القرطاجية موقع الطوفِت(Tophet) ، وهو مزار ضخم يحتوي على آلاف الجرار الفخارية التي تضم رمادًا بشريًا وحيوانيًا. وقد أثار هذا الموقع جدلاً واسعًا في الأوساط الأركيولوجية حول وظيفته؛ إذ يرى بعض الباحثين أنه كان مخصّصًا للتضحيات الطقوسية التي تُقدَّم إلى الإلهين بعل حمّون وتانيت، بينما يذهب آخرون إلى أنه مكان لدفن الأطفال المكرّسين للآلهة ضمن طقس رمزي يعبّر عن الفداء والتقديس (Stager, 1984,p.17).

ومهما يكن الرأي، فإن هذا الفضاء المقدّس يعكس عمق البعد الديني في الفكر القرطاجي، حيث يتحوّل الفعل الجنائزي إلى وسيلة للتواصل بين الإنسان والقداسة عبر رمزية النار والتطهير.

ت-الطقوس والممارسات أنواعه الطقوس والممارسات

كان إعداد الميت في قرطاج يتمّ بعناية طقوسية دقيقة تعبّر عن الاحترام للروح واستعدادها للانتقال. فبعد الغسل بالزيوت العطرية والتكفين بالأقمشة الفاخرة، يُوضع الميت داخل التابوت مصحوبًا بأغراضه الشخصية وتماثيل صغيرة تُجسّد الأرواح الحامية أو الكائنات الوسطى بين الإنسان والآلهة. وتُقدَّم بعد الدفن قرابين من الطعام والعطور والنبيذ في مناسبات محددة، كعلامة على التواصل الدائم مع الميت واسترضاء روحه ليحظى بالسكينة في العالم الآخر (غالم، 2012، ص59)

وتحمل الرموز القرطاجية دلالات قوية على هذا التواصل بين الدنيوي والمقدّس: فـ قرص الشمس والهلال يرمزان إلى الخلود والدورة الزمنية للحياة، بينما اليد المرفوعة تعبّر عن الحماية الإلهية والاستغاثة بالقوى العليا. أما المذابح الصغيرة المنتشرة قرب المقابر، فتمثّل بوضوح رغبة القرطاجيين في تحويل المكان الجنائزي إلى فضاء مقدّس يُعيد إنتاج العلاقة بين الإنسان والإله من خلال الطقس والنذر (سامي، 2018، ص73)

وهكذا يظهر أنّ الطقوس الجنائزية القرطاجية لم تكن ممارسات عرضية، بل كانت بنية رمزية متكاملة تُجسّد رؤية دينية تقوم على **الازدواجية بين الموت والحياة، الفناء والبعث، الأرض والسماء** .وهي رؤية تُعبّر عن عقل حضاري جمع بين الإيمان بالآلهة وبين حسّ فلسفي عميق يُدرك الموت كضرورة كونية في دورة الخلق.

الطقوس الجنائزية في الحضارة الرومانية بشمال إفريقيا

مع دخول الرومان إلى شمال إفريقيا بعد سقوط قرطاج (146 ق.م)، بدأت مرحلة جديدة اتسمت بمزج الموروث المحلي بالأعراف الرومانية .وقد كانت الطقوس الرومانية الجنائزية جزءًا أساسيًا من الحياة المدنية والدينية، هدفها الحفاظ على العلاقة بين الأحياء والأسلاف.

أ- الاحتفالات والمواكب:

كان الرومان يولون الجنازات أهمية كبرى، إذ تُقام مواكب مهيبة يشارك فيها الأقارب والكهنة والموسيقيون، ويتقدّمها تماثيل الأجداد (Imagines maiorum) التي تُحمل كرمز لاستمرارية النسب (Toynbee, 1971, p45) وبعد الدفن، كان يُنظَّم احتفال يُسمّى

الباريناتاليا Parentalia ، وهو مهرجان سنوي لتكريم أرواح الأسلاف عبر تقديم الأطعمة والزيوت في القبور (Toner, 2008 ,p 103) وقد انتقلت هذه العادة إلى المستعمرات الرومانية في إفريقيا، مثل *هيبون وقرطاج الجديدة*، حيث وُجدت نقوش تذكر أسماء الموتى مع أدعية الرحمة والخلود.

ب- العمارة الجنائزية:

امتازت المقابر الرومانية في شمال إفريقيا بفخامتها ودقّتها المعمارية، إذ ظهرت المدافن المزخرفة بالأقواس والتماثيل، وغالبًا ما كانت العائلات تبني أضرحةً ضخمة لتأكيد مكانتها الاجتماعية.(Lepelley, 1981 ,p .192) كما استخدم الرومان في إفريقيا الرموز الوثنية والمسيحية المبكرة جنبًا إلى جنب في المقابر، مثل السمكة والعنقود والعين، مما يدل على التحوّل الديني في أواخر العهد الإمبراطوري (كمال، 2016، ص119)

ت- الطقوس الرمزية:

كان الميت يُدفن غالبًا مع عملة معدنية تُوضع في فمه أو يده كـ"أجرة لشارون"، الحارس الأسطوري الذي يعبر بالأرواح نهر الموت إلى العالم السفلي، وهي عادة ذات أصل يوناني تبنّاها الرومان (Hope, 2009,p.28)كما كان إشعال النار والبخور أثناء الجنازة يرمزان إلى تطهير الروح وإلى عودة العنصر الناري إلى الكون.

وفي الأخير يمكن القول بأن المقارنة بين هذه الحضارات الثلاث تُظهر أنّ طقوس الدفن في شمال إفريقيا القديمة وإن اختلفت في المظاهر، إلا أنّها تشترك في جوهرها الرمزي، أي الإيمان باستمرار الحياة بعد الموت، وبوجود علاقة روحية تربط الأحياء بالأموات.

فالأمازيغ عبّروا عن هذا الإيمان عبر الرموز الشمسية والدولمنات الحجرية، والقرطاجيون عبر القرابين والنقوش الطقوسية، والرومان عبر المعمار الضخم والاحتفالات التذكارية (Lévy, 2015 ,p.156) والتي تبرز من خلال ذلك وحدة الوعي الإنساني الإفريقي القديم في مواجهة الموت: إذ لم يكن الموت نهاية، بل بداية لحياة أبدية تتجسّد من خلال الذاكرة والطقس والرمز.

الفصل الثالث: الرمزية الدينية في المعتقدات والطقوس الجنائزية عند الأمازيغ في العصور القديمة

الرمزية الروحية للموت والبعث:

أظهر الأمازيغ القدماء اعتقادًا راسخًا في فكرة الخلود، إذ لم يُنظر إلى الموت كفناء نهائي، بل كمرحلة انتقالية نحو عالم آخر تسكنه الأرواح. وقد عكست قبورهم المهيبة - خصوصًا المدافن الميغاليثية والدولمنات- هذا الإيمان بالبعث، من خلال طقوس الدفن المعقدة ووضع الأثاث الجنائزي مع الميت.(Gsell, 1927 ,p.214)

إن هذا الاعتقاد يجد جذوره في مفهوم "استمرار الروح"، حيث يُعتقد أن الروح تظلّ تراقب الأحياء وتحتاج إلى القرابين لتبقى في سلام. ولعلّ عادة وضع الطعام والشراب مع الجثة دليل رمزي على هذا التواصل بين العالمين (Benabou, 1976 ,p .178)

المقدسة في الطقوس الجنائزية:

تنوّعت الرموز التي استُخدمت في الممارسات الدينية الأمازيغية، وكان أغلبها مرتبطًا بعناصر الطبيعة كالسماء والشمس والقمر والماء. فالشمس مثّلت رمزًا للبعث والنور الإلهي، وهو ما يفسّر توجّه بعض القبور نحو الشرق، في انتظار "نور الحياة الجديدة ." (Charles-Picard, 1969 ,p.132) كما لعب الماء دورًا رمزيًا في التطهير والتجديد، وكان يُستخدم في طقوس غسل الميت لتخليصه من دنس الجسد وإعداده للعبور إلى العالم الآخر (سليم، 2018، ص87)

وأمّا النار فكانت تُعدّ عنصرًا مطهرًا ومقدسًا، وهي من بقايا التأثير الزرادشتي والشرقي الذي امتزج بالعقائد المحلية(Chaker, Berbères aujourd'hui, 2007 ,p.95) .

قداسة الأجداد والروح الجماعية:

اعتقد الأمازيغ بقداسة الأرواح، وخصوصًا أرواح الأجداد الذين كانوا يُعتبرون حماة القبيلة. وتجلّى هذا الاعتقاد في إقامة الطقوس الموسمية على القبور، كتقديم

القرابين وقراءة الأدعية، تعبيرًا عن الامتنان واستدرار البركة (فاطمة، 2012، ص64). ويشير *مارسيل بنابو* إلى أنّ هذه الممارسات لم تكن مجرد خرافات بل كانت جزءًا من نظام قيمي وأخلاقي يربط الفرد بجماعته من خلال الذاكرة والدم والروح (Benabou, 1976 ,p.201).

الرمزية النسوية في المعتقد الديني:

لعبت المرأة دورًا محوريًا في الطقوس الجنائزية، حيث كانت تُكلّف بالبكاء الطقسي أو "الندب"، باعتباره وسيلة رمزية لتحرير الروح من الألم المادي للجسد. كما مثّلت المرأة في المعتقد الأمازيغي صورةً رمزية للخصب والتجدد، حتى ارتبطت آلهات مثل تانيت ونيث بالحياة والموت في آنٍ واحد (Lancel, Carthage: Histoire, Archéologie, Mythes, 1992 ,p.53)

وترمز "تانيت" بوجهها الهلالي إلى القمر ودورته الدائمة، التي تعكس فكرة الولادة والموت المتكررة، وهي فكرة مركزية في الديانة القرطاجية التي تأثّر بها الأمازيغ القدماء (Tlatli, 1968 ,p.77)

البعد الأخلاقي والديني للموت:

لم يكن الموت عند الأمازيغ مجرد حدث بيولوجي، بل اختبارًا أخلاقيًا يعكس نقاء الإنسان من أدران الحياة. فسلام الروح مرهون بصفاء السيرة في الدنيا. وتُظهر النقوش والجداريات الجنائزية نصوصًا رمزية تمجّد الفضائل كالصدق والشجاعة، وتدين الغدر والأناني(Quellec, 2008 ,p.121) ،إنّ هذه الرمزية الأخلاقية تضع الطقوس الدينية في سياقها القيمي، حيث تتجلّى العلاقة بين الميتافيزيقا والأخلاق، أي بين الإيمان بالآخرة والسلوك في الحياة الدنيا.

تُظهر الرموز الدينية في الطقوس الجنائزية الأمازيغية أن الدين لم يكن منفصلاً عن الحياة اليومية، بل كان نظامًا وجوديًا يوجّه الإنسان في علاقته بالطبيعة والمجتمع

والمطلق. وقد شكّلت هذه الرمزية الدينية نواة لتصور فلسفي محلي حول الخلق والموت والبعث، يعكس عمق الهوية الأمازيغية وتجذّرها في تاريخ شمال إفريقيا القديم.

خاتمة:

تُبرز هذه الدراسة أنّ المعتقدات والطقوس الجنائزية عند الأمازيغ في العصور القديمة مثّلت منظومة رمزية متكاملة، تجلّت فيها علاقة الإنسان بالمقدّس، وسعيه إلى تجاوز الموت عبر طقوس تحمل دلالات دينية واجتماعية عميقة. فقد كشفت الممارسات الجنائزية — من إعداد القبور واتجاهها، إلى القرابين والتمائم — عن رؤية أمازيغية متجذّرة للوجود، تُؤمن بدورة الحياة والموت كمسار طبيعي نحو الخلود. كما أظهرت النتائج تفاعل هذه الطقوس مع المؤثرات الفينيقية والرومانية دون أن تفقد أصالتها المحلية، مما يؤكد مرونة البنية الدينية والثقافية في شمال إفريقيا القديمة.

وتفتح هذه الخلاصات آفاقًا جديدة للبحث في **الممارسات الرمزية والدينية لدى الأمازيغ** من زاوية أنثروبولوجية مقارنة، تربط بين الطقوس القديمة والتمثلات الراهنة للموت والمقدّس في الثقافة الشعبية المغاربية. كما يمكن أن تشكّل دراسة الرموز الأنثوية في المعتقد الأمازيغي، مثل رمزية الإلهة "تانيت"، مدخلًا خصبًا لفهم تطوّر الوعي الديني والهوية الثقافية في شمال إفريقيا.

قائمة المراجع:

Benabou, M. (1976). La Résistance africaine à la romanisation. paris: François Maspero.

Chaker, S. (1998). Berbères: Identité et culture. paris: Édisud.

Chaker, S. (2007). Berbères aujourd'hui. paris: L'Harmattan.

Chaker, S. (paris). Berbères aujourd'hui. 2007: L'Harmattan.

Charles-Picard, G. (1969). Les Religions de l'Afrique antique. paris: Payot.

Douglas, M. (1975). Death, Ritual, and Social Order. New York: Routledge.

Eliade, M. (1957). Le sacré et le profane. paris: Gallimard.

Février, P.-A. (1966). Le Maghreb dans l'Antiquité. paris: Presses Universitaires de France (PUF).

Gennep, A. V. (1909). Les rites de passage: Étude systématique des cérémonies. Paris: Paris: Émile Nourry.

Gsell, S. (1927). Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, Tome IV. paris: Hachette.

Hope, V. M. (2009). Roman Death: The Dying and the Dead in Ancient Rome. London: Continuum.

Khader, N. B. (2005). Les symboles funéraires berbères: Étude anthropologique et historique. Alger: Office des Publications Universitaires.

Lancel, S. (1992). Carthage: Histoire, Archéologie, Mythes. paris: Fayard.

Lancel, S. (1992). Carthage: Histoire, Archéologie, Mythes. paris: Fayard.

Lancel, S. (1995). Carthage: Histoire et archéologie. Oxford: Blackwell Publishers.

Lepelley, C. (1981). Les cités de l'Afrique romaine au Bas-Empire, Tome I. paris: Études Augustiniennes.

Lévy, J.-P. (2015). La mort dans les civilisations antiques. paris: Presses Universitaires de France.

Quellec, J.-L. L. (2008). Mythologie du désert: Symboles et croyances du Sahara. paris: Éditions Errance.

Stager, L. E. (1984). Child Sacrifice at Carthage — Religious Rite or Population Control. Washington, D.C., États-Unis: Biblical Archaeology Society.

Tlatli, S. (1968). La Tunisie: Civilisations et Cultures. tunis: Cérès Productions.

Toner, J. (2008). Roman Funerary Rituals. Cambridge: Cambridge University Press.

Toynbee, J. M. (1971). Death and Burial in the Roman World. London: Thames and Hudson.

الحسيني ,ك .(2017). الطقوس الدينية في قرطاج القديمة :دراسة في الممارسات والرموز . تونس :دار سوتيميديا للنشر .

الحميد ,ب .ن .(2011) .تاريخ شمال افريقيا القديم :من أقدم العصور الى الفتح الاسلامي . الجزائر :دار الخلدونية.

الطاهر بن قاسي. (2013). العمارة الجنائزية الامازيغية القديمة: قراءة أثرية في رموز الموت والخلود. الجزائر : دار الهدى للطباعة والنشر .

حسن ,ا .(2012) .الأنثروبولوجيا والمقدس الجنائزي :دراسة في الرموز والشعائر .بيروت : المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

سامي ,ع .(2018) .الرموز الدينية في قرطاج القديمة .الجزائر :دار الوعي.

عبد الحكيم عبد غالم. (2012). الديانة والطقوس في قرطاج القديمة. تونس: دار سراس.

عبد السلام كمال. (2016). الفن الجنائري في افريقيا الرومانية . الجزائر : دار الهدى للطباعة والنشر .

عبد العزيز سليم. (2018). الطقوس الدينية عند الامازيغ في العصور القديمة . تونس: دار الفكر المعاصر.

فاطمة الزهراء القلالي. (2016). الطقوس الدينية الأمازيغية القديمة: دراسة في المعتقد والممارسة . تونس : دار سوتيميديا.

فاطمة ,س .(2012) .المرأة والرمز في الميثولوجيا الأمازيغية القديمة .الرباط :منشورات جامعة محمد الخامس.

قاسي عبد القادر. (2010). المقدس في حضارات شمال افريقيا القديمة: دراسة في الرموز والمعتقدات. الجزائر: دار الهومة للنشر والتوزيع .

محمد ,ش .(2009) .الديانة الأمازيغية القديمة :المعتقدات والطقوس .الجزائر :دار القصبة.

يوسف ,ع .ا .(2015) .المعتقدات الجنائزية في حضارات المغرب القديم .الجزائر :دار الخلدونية للنشر والتوزيع.